٨ الجُنْدِيَّةُ طَرِيقُ القِيَادَةِ

حين تدعي نظرية ما دعواها ، فان اللحظات الحرجة وحرارة التحديات هي التي تكذبها آنذاك أو تصدقها ، فيرسخ مدلولها أو يهمل ، ويصير أساساً في التعامل والتفاضل أو يعرض عنه .

وحين أدلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بنظريته في الأشكال الروحية المؤتلفة ، وجربها في أصحابه وتلامذته ، كان عليه أن ينتظر يوم فصل يؤيد مذهبه أو يخونه ، فيتكفل بنقله للاجيال اللاحقة ، أو يسلمه النسيان .

● الامارة حمل ثقيل

ولقد كان يوم خلافة تلميذه عمر بن عبد العزيز هو ذاك اليوم الفصل .

فلئن لم يكن ثمة جيش عاص يتحدى تلميذه وراء أسوار

دمشق ، فان هناك تحديات نفس مقبلة على اغراءات الزياسة ، وبطراً اجتماعياً ، ورخاوة خلف لسلف الهمة والجهاد .

ومع كل خطوة لعمر حين كان يرتقي المنبر ليخطب خطبته الأولى : كانت ترتجف قلوب الذين يظنون ان عبيد الله قد أحيا فيهم فقهاً كاد ينحرف بالتأويل ، وتزداد دقات قلوبهم مع استدارة عمر ، يخافون أن تغلب شهوة تنفر الناس عن مذهبهم التربوي ، وتزهدهم فيه .

انها رجفة الموقف الحاسم ، لا الشك في الفقه المسند ، اذ ربما كان للخوف معنى لو كان لسان عمر يتكلم أو عقله المجرد لكنها كانت دموعه ثم ، وكان قلبه ..

كان فوق المنبر خريج مدرسة يحاول أن يفي لاستاذه ، ويطمن أشكاله ، ويحزن متواضعاً لفتيان لم يعرفوا ما عرف فتفرقوا ، فانطلق يعلن انتصار عبيد الله .

(ألا اني لست بخيركم ، ولكني رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً) [1] .

وهذا الشعور هو أدنى ما تحس به الارواح المؤلفة وتتميز به عن غيرها ، فحين تزول المزايا المصطنعة ، والطباع المتكلفة ، ويحل التواضع ، وتسود الاخوة : لن يبقى من معنى الامارة والرئاسة الا ثقلها الثقيل .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٤٠ .

• عمر يطور مذهب التأليف

لقد أبرد عمر حقاً بكلماته هذه قلوباً طال همها واشتياقها إلى رؤية واقع يظنه الضعاف خيال مثاليات ، وتحليق تمنيات .

نعم ، كانت كلمات عمر وعداً لمستقبل ، واخباراً عن شعور متوار في كامن الصدر ، ولكن كفى بوعود الاحرار ضماناً ، وبأخبارهم صدقاً .

ولذلك أسلس له الناس القياد ، وحصل منهم تجاوب سريع معه ، أحسن عمر استغلاله أيما احسان ، فطور نظرية استاذه في التأليف ، فجعل ابتداء التربية ينطلق من معالجة أعقد عقدتين في الجماعات ، عقدة الفراغ ، وعقدة حب الرئاسة والتنازع عليها .

فالمطالع لسيرة عمر يجد بشدة اهتمامه بعلاج هذين العيبين واضحاً ، وظل تأثيره في ذلك ينطق الشاعر بعد الشاعر ، والحكيم بعد الحكيم ، يستمدون من تجربته معاني الاصلاح .

عرف عمر سيئات الفراغ ،فأوجد للناس شغل خير الهاهم، ان لم يكن عملاً عمرانياً وسعياً في مصالح المسلمين ، فشغلاً تأملياً مع النفس ، وفكراً في القلب ، يفيضان من بعد عزمات فنهضات .

لقد أخرجهم من الغفلة والاهمال والبرود ، إلى التذكر والفحص والاستدراك ، وكفى بهذا الاخراج نجاحاً عند من

يعرف تربية الجماعات . وفي خطبه وكلماته كلها تسمية واشارة إلى عيوب النفوس ، وطرق اصلاحها ، وترقب الموت ، ورجاء رحمة الله ، وخوف عقابه . ثم زاد فاستقدم الخوارج إلى دمشق ، وأمرهم بانهاء تفردهم ولزوم الجماعة ، وذكرهم ضرر الفرقة ، فبات جميع الناس في شغل وادكار ، بمثلهما انتفع أبو العتاهية من بعد ، فاتضحت له مثالب الفراغ ، فقال :

ما أحسن الشغل في تدبير منفعـــة
أهل الفراغ ذوو خوض وارجاف

فالمشتغل جاد فيما هو فيه ، يربي قلبه ، ويعلي همته ، والفارغ الكسول يفتش في الفتن عن لهو يؤنسه .

ثم دعا عمر ثانية إلى زهد في المناصب هو أهم من الزهد في الأموال ، واستخلص من الفتن التي حدثت في الصدر الأول دروساً ، ووعظ المستشرفين للرئاسة مواعظ أماتت فيهم حبها ، بمثلها انتفع أبو العتاهية مرة أخرى ، فحذرك :

أُخَيَّ : من عشق الرئاسة خفت أن
يطغى ويحـــدث بدعة وضـــلالا

وتخوفه هذا صواب لم يبالغ فيه ، فان شرع الله وعرف المؤمنين ينفران عن طلب الرئاسة ، فمن طلبها تمحل لذلك ولا بد ، فيزين الذميم ، فتكون البدعة ، ويقمع المخالف له ويعاديه ، فتكون الضلالة ، ومن نظر إلى عهد ما بعد عمر

أدرك ذلك ، فان القلوب عزفت عما قبحه لها وآمنت ، إلا قلباً واحداً من قلوب أقربائه ، عشق الرئاسة ، فسقاه السم ، فمات عمر ، فكان عصر الضلالة ، والسنوات العجاف .

● مدرسة الثورى تواصل التربية

ولما هالت المربين تلك الضلالة التي عكرت صفاء تاريخ المسلمين بعد عمر : أصفقوا على ذم التنازع على الرئاسة وتحذير الأجيال اللاحقة منه ، وجعلوه أصلاً مستقلاً من أصول التربية الاسلامية ، يتجاوز أن يكون مجرد علاج واقع أرهق الذين بعد عمر .

* فللثوري كلام كثير جزل في ذلك تصدر به المربين ، يبدؤه بتقرير واقع الناس ، فيقول :

(ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة) .

ورؤياه هذه ظلت تؤرقه ، حتى أمسك بقلمه يكتب رسالته المشهورة إلى صاحبه عباد بن عباد ، وإلى كل عباد من الدعاة في كل الأجيال ، أن :

(اياك وحب الرياسة ، فان الرجل تكون الرياسة أحب اليه من الذهب والفضة ، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة ، فتفقد نفسك ، وأعمل بنية) .

ثم جسد حقيقة ينساها طلاب الرئاسة ، فذكرهم أن :

(من طلب الرياسة قبل مجيئها : فرت منه) .

أي : يبقى عليه وزر الشوق الآثم ، وزفرة الصدر الراغم ، ليس إلا ، ويرجع صفر اليدين ، وبخفي حنين ، لم يذهب لابعد من فضح نفسه أمام جمهور العاملين .

* وكما كانت نظرية الاشكال المؤتلفة مذهباً لعبيد الله بن عبدالله جسده في جماعة عمل متآخية استدركت التفرق ، كان نداء الحذر في طلب الرئاسة مذهباً للثوري جسده في جماعة زهد محتسبة . استدركت تفرقاً آخر ، ولانت لها نفس هارون الرشيد ، فشغل الناس معه بحج أو بغزو ، سنة فسنة .

* ولعل الفضيل بن عياض هو أهم أركان تلك الجماعة التي عضدت الثوري في شرح مذهبه من بعده ، إذ صحبه وأخذ علمه ، وتأخرت وفاته عنه قرابة ثلاثين سنة ، كان يكثر خلالها ذم التكلف في طلب الرياسات ، وعلى الأخص تركيزه على كشف النفسية المعقدة الغريبة التي يحملها طالب الرياسة .

يقول الفضيل :

(ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر النـــاس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحداً عنده بخير . ومن عشق الرياسة فقد تُودِّع من صلاحه) .

ومن لم يجرب الأعمال الجماعية يستغرب مثل هذا أو يستبعده ، ولكن الممارس يحفظ قصصاً تصدق الفضيل أيما

تصديق ، فان العمل الاسلامي حين يــدع الانتقاء ، ويلهيه التكاثر بالأعضاء : يدخله أصحــاب التخليط ، ويظهر في محيطه مثل هذا الذي وصفه الفضيل .

فمن لم يزهد في الرياسة صار ميؤوساً منه عند الفضيل ، أي وان زهد في الأموال وأطايب الطعام وجمال النساء ، لان (الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا) . كما يقول صاحبه وصاحب الثوري ، الزاهد يوسف بن أسباط .

كلام لا يقولونه اعتباطاً ، بل كانت تأملاتهم في مصائر الجيل الذي عرفوه تعمل كعمل دوائر الاحصاء الحديثة ، يحصون من كمل ونقص ، ومن وصل ومن خانته قدمه ، والعثرة التي عثرها ، ان كانت في أول الطريق ، أو عند أوسطه ، أو لما كاد أن ينتهي ولم يبق له إلا خطوة الفوز ، ثم يعطونك نتائج الاحصاء في أقوالهم هذه .

• تجريب وتدرج

وأخذ الشعر أيضاً دوره في التحذير آنذاك ، ولفت الشعراء أنظار المتنازعين إلى كثرة الأعداء من حولهم ، وشماتتهم بالذي يحصل بين المؤمنين ، وانتفاعهم به نفعاً مباشراً في عمل جاد إيجابي يستغل فرصة انشغال المؤمنين بأنفسهم ، فأرسلها شاعر ذاك العصر زفرة ألم :

ان التنازع في الرئاسة زلـــة*   لا تستقال ، ودعوة لم تنصر

أو ما ترون الشامتين أمامكـم   ووراءكم من مضمر أو مظهر

وهذا في الحقيقة هو الوصف الدائم لظروف وآثار كل نزاع ، بل ان كثرة الأعداء اليوم ، وخططهم المنظمة ، تجعل المحنة الحالية أعنف محنة مر بها الاسلام في تاريخه ، وتستدعي أقصى درجات الوحدة الايمانية بين العاملين .

والنجاة من فتن اليوم لن يكون إلا باللجوء إلى الشرط الذي وضعه سلفنا بالأمس وأودعوا فيه خلاصة تجربتهم في اكتشاف مسلك الوصول الصحيح إلى الرئاسة ، فانهم لم يعترفوا إلا بالطاعة طريقاً إلى القيادة ، وجزموا بأن من لم يكن في آخر الصفوف ، تغمره عجاجة المتقدمين ، فلن يستطيع أبداً قيادتهم ان شغر المكان واحتيج إليه .

ولذاك كانوا لا يرأس منهـــم

من لم يجرِّب حزمـه مرؤوســا

من لم يُقَد فيطير في خيشومـــه

رَهَج الخميس فلن يقود خميســا

قانون تدرج ، ومرحلة اختبار ، اذا أساء خلالها العامل أدب الجندية ، واستعجل ، وتطاول : جوزي بالحرمان ، ودعي إلى التوبة ، وأرجع إلى محل البداية يستأنف المحاولة .

• لا .. يا عباد الرحمن

ليس في هذا القانون اعتداء ، ولا احتكار أو تجبر ، وانما هو صياغة تجريبية محضة لسنة النبي ﷺ في اختيار الأمراء ، فانه كان يقول :

(إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه) [1] .

أي هذا الأمر من شئون المسلمين .

وشدد في النصيحة الصريحة لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه ، فقال له :

(يا عبد الرحمن بن سَمُرة : لا تسأل الامارة ، فانك ان أُعطيتَها عن مسألة وُكِلتَ اليها وان أُعطيتَها عن غير مسألة أُعنتَ عليها) [2] .

مع أن عبد الرحمن من صالحي صحابته وشجعانهم ، ويكفيه أنه لما التزم وصية النبي ﷺ هذه صار قائد جيش المسلمين الذي كلف بفتح كابل عاصمة الأفغان ، وكان حصنها من أمنع الحصون ، وسقط عنده من شهداء المسلمين ما لم يكن في معركة أخرى .

• سيد يشرح ..

ولا يظنن ظان أن هذا المنع عن طلب الامارة سيفوت

---

(١) (٢) صحيح البخاري ٩/٨٠/٧٩ .

فرصة الالتفات إلى خير صاحب الكفاية الصامت ، فان العمل اليومي يكشف ولا بد كل قابلية لدى الدعاة ، وهي ظاهرة يؤكدها سيد قطب تأكيداً ، فيتساءل :

(لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لاشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو للامامة أو للامارة) ؟

ويجيب :

(ان الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لابراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحداً بالتزاحم عليه — اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى — ومن ثم لا يسألَ المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يمنعوها .

ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم . وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضاً .

ان الحركة هي العنصر المكون لذلك المجتمع ، فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الاسلامية ..

أولاً : تجيء العقيدة من مصدرها الالهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله — على عهد النبوات — أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله — على مدار الزمان بعد

ذلك – فيستجيب للدعوة ناس ، يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة . فمنهم من يفتن ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه ، فيقضي نحبه شهيداً ، ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق .

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستاراً لقدره ، ويمكن لهم في الأرض تحقيقاً لوعده بنصر من ينصره ، والتمكين في الأرض له ، ليقيم مملكة الله في الأرض – أي لينفذ حكم الله في الأرض – ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ، انما هو نصر لدين الله ، وتمكين لربوبية الله في العباد .

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ، ولا عند حدود جنس معين ، ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة ! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا الانسان ، كل الانسان ، في الأرض ، كل الأرض ، من العبودية لغير الله ، وليرفعوه عن العبودية للطواغيت ، أياً كانت هذه الطواغيت .

وفي أثناء الحركة بهذا الدين – وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم – تتميز أقدار الناس ، وتتحدد مقاماتهم في المجتمع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على

موازين وقيم ايمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، من البلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة ، وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها ، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الامارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الايمانية — كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ، ثم الأنصار ، وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل — ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الاسلام . في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضاً ، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين — مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الاطماع — وعندئذ تنتفي الحاجة — من جانب آخر — إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الامارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية ..

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية ، ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة .. لن يوجد اليوم أو غداً إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد ، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا اليها .. وهذه

نقطة البدء ، ثم تعقبها الفتنة والابتلاء — كما حدث أول مرة — فأما ناس فيفتنون ويرتدون ، وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء ، وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الاسلام ، يكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار ، حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكن لهم في الأرض — كما أمكن للمسلمين أول مرة — فيقوم في أرض من أرض الله نظام اسلامي .. ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الاسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الايمانية .. ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها ، لان مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم .

ولقد يقال بعد هذا : ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى . فاذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟

وهذا السؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين . ان هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة ..

.. يتحرك لتحرير الانسان .. كل الانسان ، في الأرض .. كل الأرض ، من العبودية لغير الله ، وليرفعه عن العبودية للطواغيت ، بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة .

واذن ، فستظل الحركة — التي هي طبيعة هذا الدين

الأصيلة – تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ، ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن – إلا أن ينحرف عن الإسلام – وسيظل الحكم الفقهي – الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية – قائماً وعاملاً في محيطه الملائم .. ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه .

ثم يقال : ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضاً ، ويصبح الاكفاء الموهوبون في حاجة إلى اعلان عن أنفسهم وتزكيتها ، وطلب العمل على أساس هذه التزكية .

وهذا القول كذلك وهم ناشيء من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة . ان المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين – كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه والالتزام في المجتمع المسلم – ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية ، سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية . أما الامارات العامة فيختار لها الامام – الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد ، أو أهل الشورى له – يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة ، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة) (١) .

---

(١) في ظلال القرآن جـ ١٣ ص ١٤ .

وهذا الكلام لسيد كلام صحيح صائب ، يظهر صوابه على الأقل في الجماعة الاسلامية الحركية ان لم نوافقه على احتمال حصول هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي العام المحكوم بحكومة اسلامية .

بل ان أزمة الحركة الاسلامية الحاضرة انما هي أزمة قلة المربين والاداريين من أصحاب القابليات الممتازة والصفات العالية ، ولن يغفل قائد عن ذي علم وتقوى متحمس في وقت يمسك فيه بالعدسة المكبرة يفتش عنهم تفتيشاً ، ولكن تجارب القادة تكره بعث وتأمير المتكلف المستشرف المغرور ، فنظن نحن أنهم قد غفلوا عنه ، وما هي بالغفلة .

● الاستثناء لا يُقلد

أما قصة الصدائي رضي الله عنه حين طلب الامارة وأجابه النبي ﷺ فانما هي استثناء اقتضته المصلحة وأوجبته الظروف ، وذلك أن رسول الله ﷺ أرسل بعثاً إلى اليمن ليحارب بني صداء ، فشفع فيهم أحدهم ، وأسلم ، وجاء بوفد منهم إلى رسول الله ﷺ معلنين اسلامهم ، وكان هذا الشفيع مطاعاً فيهم ، فطلب من رسول الله ان يؤمره عليهم ، فأجابه إلى ما طلب . ففي ذلك كما يقول ابن القيم :

(جواز تأمير الامام وتوليته لمن سأله ذلك اذا رآه كفؤاً ، ولا يكون سؤاله مانعاً من توليته . ولا يناقض هذا قوله في

الحديث الآخر : أنا لن نولي على عملنا من أراده ، فان الصدائي انما سأله أن يؤمره على قومه خاصة ، وكان مطاعاً فيهم محبباً اليهم ، وكان مقصده اصلاحهم ودعاءهم إلى الاسلام ، فرأى النبي ﷺ أن مصلحة قومه في توليته ، فأجابه اليها ، ورأى أن ذلك السائل انما سأله الولاية لحظ نفسه ومصلحته هو ، فمنعه منها ، فولى للمصلحة ، ومنع للمصلحة ، فكانت توليته لله ، ومنعه لله)[1] .

فها أنت ترى أنه هو الذي استتابهم ، وانهم من بلاد بعيدة منزوية ليس فيهم لو رجعوا أصلح منه ، فأقره النبي ﷺ على طلبه ، ولا نحفظ في السيرة قصة أخرى مماثلة لها .

● يوسف والخزائن

كذلك قول يوسف عليه السلام للعزيز :

(اجعلني على خزائن الأرض ، اني حفيظ عليم) .

فانه (كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة ، وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنماً يطلبه يوسف لنفسه ، فان التكفل باطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد أنه غنيمة ،

---

(١) زاد المعاد ٥٣/٣ .

انما هي تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم)[1]

وقد فهم الفقيه الأندلسي أبو بكر الطرطوشي من قول يوسف :

(ان من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره ، أو أمة لا يعرفون ، فخاف على نفسه ، أو أراد إبراز فضله : جاز له أن ينبههم عن مكانه وما يحسنه ، دفعاً للشر عن نفسه ، أو إظهاراً لفضله فيجعل في مكانه) .

قال : (وفيه فائدة أخرى : وهو أنه ان رأى الأمور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدي الأمانة ، ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية : جاز له أن ينبه السلطان على أمانته وكفايته .

ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي : من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء : جاز له أن ينبه السلطان على مكانه ويخطبه خطة القضاء .

وقال بعضهم : بل يجب ذلك عليه إذا كان الأمر في يدي من لا يقوم به)[2] .

وما ذهب إليه ظاهر الصواب ، أي في مواجهة الظالم والضعيف ، وعلى ذلك يحمل قول أصحاب الشافعي ، ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن يوسف كان يخاطب ملكاً كافراً ،

(١) في ظلال القرآن جـ ١٣ ص ١١ .
(٢) سراج الملوك /٧٩ .

وأنه لم يطلب ما طلب إلا من بعد تعريض ظاهر بتأميره من قبل العزيز ، على ما يدل عليه سياق السورة ، فإن العزيز قال : (ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال : انك اليوم لدينا مكين أمين) .

فطريقة الايجاز البلاغي القرآني حذفت ما يفهم ضمناً ، فان رسول الملك قال ليوسف فيما يبدو : ان الملك يدعوك ، وقد سمعناه يفصح عن رغبته في استعمالك وتأميرك . وتأكد ذلك ليوسف في الاشارة الواضحة في خطاب الملك له حين وصفه بالتمكن والأمانة .

وعليه : فان تجزئة تفسير قول يوسف وجعله نسبياً واجب ، بالتضييق على أناس في تقليد يوسف ، والتوسعة على آخرين .

فمن كان من الدعاة مقرباً من القائد ، مستعملاً في عمل مهم يدل على أن القائد وثقه وقواه وأمنه إلى درجة سمحت له باستعماله وجعله من أعوانه ، فانه يسعه — اذا آنس من نفسه بعداً عن الغرور — أن يشير على القائد أن يستعمله في عمل آخر قريب في أهميته مما هو فيه ، هو أكثر اتقاناً له ، أو يرى أن مصلحة ما توجب تلك خفيت على القائد . ويلجأ خلال ذلك إلى التعريض دون التصريح ما أمكنه ، ويعرض رأيه بأدب كامل ولفظ رقيق .

وأما من كان من الدعاة غير مستعمل في عمل من أعمال الدعوة ، ويريد أن يطلب نوع عمل مهما صغر ، أو مستعملاً

في عمل صغير ويريد أن يستعمل في عمل كبير لا يقاربه ، فالباب ضيق أمامه ضيقاً شديداً ، وتقييده بالأحاديث الصحيحة الواردة في المنع أصوب حتى ولو وجد في نفسه قوة وكفاية ، والله أعلم .

● في التأني السلامة

وخير له من ذلك أن يتأنى في تحديث نفسه بالامارة ، فان التأني زين كله .

• يتأنى أولاً إلى حين اكتمال فقهه ووعيه ، ينفذ وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال :

(تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا) (١) .

فيجب على الداعية أن يتفقه ، لسيادة وقيادة من يأتي بعده من أفواج الآيبين إلى الإيمان .

• ويتأنى ثانياً إلى حين اكتمال رجولته وتجربته الحياتية ، فان الايام لا تزال تزيد المرء تجربة وعلماً كما زادت الشاعر الذي خاطبك :

أخيّ عندي من الأيام تجربــة   فيما أظن وعلم بارع شاف

فينفذ وصية الامام الشافعي حين يقول :

(اذا تصدر الحدث : فاته علم كثير) (٢) .

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٨ .

(٢) فتح الباري ١/١٧٥ .

• ويتأنى ثالثة في ذلك أيام الفتن على الأخص ، ويكون متوقفاً حذراً ، ينفذ وصية أبي العتاهية هذه المرة :

أصبر على الحق تستعذب مغبته — والصبر للحق أحياناً لممضض
وما استربت فكن وقافة حذراً — قد يبرم الأمر أحياناً فينتقض

وأقل ما في الفتن أنها ريبة كلها ، وقد ترى الفتنة أنها قد أبرمت أمرها وأحكمت خطتها ، فينقضها وعي الدعاة المؤمنين .

• نكلها إلى القادة أفضل

والداعية المتواضع الثقة قد تعزف نفسه عن الامارة ، لكنه يقع في اختلاف مع غيره عند ترشيحه للآخرين لبعض الامارات ، فيسرع المختلفان إلى التعصب لاجتهادهما ، في فورة من الحماس ، ويجزم كل منهما بتخطئة صاحبه ، أو الاعتقاد بأنه يخالفه لنوع هوى ومن باب التعسف .

ومثل هذه الظاهرة خطر ولا شك ، لكنها تستحيل بسرعة إل مجرد هاجس عابر خال من الضرر اذا انتبه كل منهما إلى وجوب مراعاة الآداب الشرعية في علاقات الدعوة ، كما أسرع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى مراعاتها حين :

(قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة .

قال عمر : بل أمّر الأقرع بن حابس .

قال أبوبكر : ما أردتَ الا خلافي .
قال عمر : ما أردت خلافك .

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك : يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) [1] .

ولا شك أن تذكر الدعاة دوماً لهذا الأدب ، والتطلع لقول قادتهم وانفاذ اختياراتهم : يجرد مثل هذه الخلافات من كل خطر بتاتاً .

فانْ تشدَّدَ القادة ، واقصوا عن المسؤولية أو عن الجماعة من لان أو انحرف أو خالف : فبالحزم أخذوا ، ليس في ذلك ضير .

وان تساهلوا ، وعفوا وتجاوزوا ، فبسد الذريعة وقواعد لمّ الشمل أخذوا ، ليس في ذلك ضير آخر .

كل ذلك صواب في أعراف سياسة الجماعات ، تؤيد الظروف النسبية المختلفة هذا المسلك أو ذاك ، ما لم يكن ثمة هوى .

ورحمة الله على من تجرد وغلب هواه ، قائداً كان أو جندياً .

---

(١) صحيح البخاري ٢١٣/٥ .